وزارة التعليم والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية- قسنطينة/ الجزائر

الملتقى الوطني حول: أنثروبولوجيا الأديان ودراسة ثقافة المجتمع الجزائري

الدكتور: مسعود بودربالة

استاذ محاضر في أنثروبولوجيا ومقارنة الاديان

كلية أصول الدين – قسم العقيدة ومقارنة الأديان

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية ـ قسنطينة ـ

الإيمايل: messaoudb04@gmail.com الهاتف: 0668984278

عنوان المداخلة: واقع ثقافة المجتمع الجزائري بعد الاستقلال من منظور مالك بن نبي – قراءة الأنثروبولوجية

ملخص

شخص مالك بن نبي رحمة الله عليه واقع المجتمع الجزائري بعد الثورة التحريرية، بكل أبعاده، وما أفرزه الوجود الاستدماري في بلادنا في كل مناحي الحياة، وقد ركز في كثير من مؤلفاته على تشخيص الواقع الثقافي بمنظور أنثروبولوجي حاول من خلاله تقديم صورة للوضع الذي آلت إليه المفاهيم والأبعاد التي تحملها الثقافة، خاصة في بعدها الديني، فبنى وفقا لذلك مستقبل ثقافة المجتمع الجزائري، والآليات التي يجب أن يحملها المشروع الثقافي في الجزائري من إعادة إحياء ثقافتنا الأصيلة والمحافظة على هويتنا وانتمائنا الحضاري.

إشكالية البحث: كيف وظف مالك بن نبي الابعاد الأنثروبولوجية لتشخيص الواقع الثقافي للمجتمع الجزائري؟ وماهي الحلول التي قدمها لإعادة بعث الهوية الوطنية والانتماء الحضاري للمجتمع الجزائري؟

أهداف البحث:

- تشخيص الواقع الثقافي الجزائري إبانة فترة الاحتلال
- معرفة المخططات الاستدمارية لتغريب المجتمع الجزائري عن هويته وانتمائه
- سبل بعث المشروع الثقافي الوطني لتعزيز الانتماء الحضاري للمجتمع الجزائري، والمحافظة على هويته وانتمائه.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، الانثروبولوجيا ، الواقع الاجتماعي الواقع الاثقافي

Abstract :

The scholar Malik Bennabi (may Allah have mercy on him) analyzed the state of Algerian society after the liberation revolution, addressing its various dimensions and the impact of colonialism on all aspects of life. In many of his writings, he focused on diagnosing the cultural reality through an anthropological lens, aiming to provide an image of the state of

concepts and dimensions inherent in culture, particularly its religious aspect. Based on this diagnosis, he envisioned the future of Algerian society's culture and outlined the mechanisms required for a cultural project aimed at reviving Algeria's authentic culture while preserving its identity and civilizational affiliation.

Research Problem

How did Malik Bennabi employ anthropological dimensions to diagnose the cultural reality of Algerian society? What solutions did he propose to revive the national identity and civilizational affiliation of Algerian society?

Research Objectives

- To diagnose the cultural reality of Algeria during the colonial period.
- To understand colonial strategies aimed at alienating Algerian society from its identity and affiliation.
- To explore ways to launch a national cultural project that reinforces the civilizational belonging of Algerian society while preserving its identity and affiliation.

Keywords: Culture, Anthropology, Social Reality, Cultural Reality

تمهيد

إن الناظر بإمعان تتجلى له مظاهر الأزمة تفصيلا في مستويات بنيوية عدة، ومناحي وظيفية مختلفة، فكريا وثقافيا تتمظهر الأزمة في عجز واضح للفعل النخبوي في أدائه لكل تغيير، وبالتالي توجيه مختلف المواقف على تنوعها وتأطير اتجاهاتها وقناعاتها، أما اجتماعيا فالأزمة تتجلى في غياب العدالة الاجتماعية ومن ثم تجسيد الآمال التي يبدو أنها طويلة الأمد - تحقيقها ليس غدا، بالإضافة إلى شبه استقالة للفرد العربي عن تحمل مسؤولياته وأداء واجباته في العمل المنتج، والاجتهاد، والحفاظ على المكتسبات، وعلى نقيض ذلك يغلب على سلوكيات المواطن العربي "لا تمدن Incivisme" شامل لكل مناحي الحياة، في النظافة والمواظبة واحترام النظم والقوانين، وغياب ثقافة المواطنة والمجتمع المدني، وبروز مظاهر العنف الاجتماعي.

أما على المستوى السياسي فيتسم الوضع العربي الراهن بعدم الاستقرار وفشل في حل إشكالية الشرعية السياسية، والتداول على السلطة، وغياب مشروع سياسي موحد يقوم على إشراك جميع مكونات المجتمع في إدارة شؤون الأمة، وهو الشأن ذاته في المجال الاقتصادي حيث تظهر الأزمة عموما في غياب قيمة العمل على المستوى الرسمي والفردي، وهو مانتج عنه ضعف في الإنتاج الزراعي والصناعي وتقهقر العمل الحقيقي المنتج للحاجيات والرفاهية، ليصبح قيمة ثانوية مفسحا المجال لهيمنة اقتصاديات ريعية هشة، تتخللها ممارسات تطفلية غير منتجة، ولا تحقق الإقلاع الاقتصادي المنشود، أضف إلى ذلك حالة الصراع العام الذي تفترضه بالطبيعة كل أزمة بين النظام والتقدم.

تشكل هذه الأزمة المركبة المتعددة الأوجه والكثيفة التلافيف، والنابعة أساسا من عدم تبني رؤية استراتيجية مزدوجة؛ راهنة ومستقبلية، تحدد الملامح العامة والخاصة لطبيعة وشكل المجتمع الذي تريد تلك الشعوب والمجتمعات بناؤه و العيش فيه، وبعبارة موجزة فإن تلك الرؤية المبدئية الغائبة هي ما يطلق عليه "مشروع المجتمع " Projet de société.

إن مشروع المجتمع يقوم تحديدا بضبط مكانة ودور الفرد ضمن الجماعة التي يعيش فيها من ناحية العلاقات والحقوق والواجبات والحريات. أما من حيث الأهداف و الغايات البعيدة من خلال:

- ضمان تنظيم صارم، عقلاني وعادل للعلاقات القائمة بين الأفراد والمؤسسات عبر ترسيم دقيق لتراتبية"Hiérarchie" متوازنة وديناميكية فاعلة، على مستوى القيم والممارسات، تكون وظيفتها ضبط واجبات وحقوق الأفراد والمجموعات.

- ضمان كذلك عبر نظرة استشرافية مستقبلية، استمرارية تطور المجتمع وانفتاحه الدائم على مختلف الأفكار والتوجهات الجديدة البناءة والمبدعة، وبذلك يحقق مشروع المجتمع للأمم والشعوب التوفيق الضروري والحيوي بين صمامي أمان حاسمان هما:"النظام Ordre" و"التقدم Progrès".

إن مشروعا للمجتمع بهذا الطموح العالي، يجب أن يقوم في تصوره وبنائه وتجسيده وكذا مواكبة خطوات تنفيذه اليومية على أسس علمية موضوعية، وهنا تأتي المساهمة الحاسمة التي يمكن للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية أن تقدمها في تصور شكل وطبيعة ولون مجتمعات الغد وكذا مرافقة مراحل بنائها وتجسيدها فعليا.

إن المساهمة المنتظرة من الأبحاث والدراسات الإنسانية والاجتماعية الأكاديمية منها والتطبيقية هي أن تساعد أساسا في تجاوز مسببات الأزمة ومظاهرها، ونتائجها، بالنظر إلى واقع هذه العلوم التي هي بالأصل تتخذ من المجتمع البشري والفرد بصفة عامة، وما يحيط بهما من مسائل وقضايا متعلقة بسلوكياتهم ومستقبلهم وطريقة عيشهم موضوعا ومجالا معرفيا من اختصاصها حصرا على الأقل من الناحية العلمية المعرفية.

وإجمالا فان المساهمة الجوهرية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية تتمثل في توفير أرضية علمية وأساس موضوعي مشترك يتشكل من المعارف والأفكار والتصورات والمفاهيم والنظريات الضرورية في تأسيس وميلاد مجتمع جزائري حديث ومستقبلي، كما تضمن هذه العلوم مواكبة إيجابية فعالة لمراحل تصوره وبنائه وتسييره بنفس الروح العلمية النقدية المبدعة والهادفة.

شخص مالك بن بني الوضع السائد للأمة الاسلامية عامة وللمجتمع الجزائري خاصة، وما كانت عليه أحوال الشعب قبل التحرر العسكري، وما آلت إليه أوضاعه بعد التحرر من خلال نوعية الفرد وطريقة التفكير، والقيم التي تبناها على أساس أنها سبيل التحضر المنشود الذي سلكه المحتل، ووصل إلى ما وصل إليه.

ومن أهم ما ركز عليه في مشروعه:

1- وهن القيم:

إن أخطر مرض أصاب المسلمين هو الانفصام بين النموذج القرآني والتطبيق العلمي، فقد انعدمت الدوافع الآلية التي حركت الرعيل الأول من الصحابة.[1]

ومبدأ المؤاخاة الذي قام به النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار أصبح من الخطابات السعيدة، والأخوة الإسلامية أصبحت كلاما للزينة، وشعورا تحجر في نطاق الأدبيات، وهذا الضعف يقصد به المجتمع ككل، ولا يقصد به كل فرد، فلا يزال في الأمة (كالأفراد) خير كثير، ولا يزال الناس في الريف أقرب للفطرة.[2]

1- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ط1، ترجمة عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، سوريا. 1991. ص 32

2- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو. دار الفكر، دمشق،سوريا.2002.ص101

ولعل الوضع الذي آل إليه المجتمع الجزائري يخفي خلفيات كثيرة جعلته يكون على هذه الصورة التي هو عليها اليوم، يحاول الهروب من الحقيقة ليبرر بالملجأ الذي يقصده عدم قدرته على أن يكون على الحال التي يفترض أنه عليها، ومن أبرز تلك الخلفيات:

2- داء الوهن:

وكان من نتائج هذا الانفصال الأخلاقي أن الفرد في المجتمع يحمل أفكارا ولكنه لا يستطيع

تطبيقها في دنيا الواقع، كفريسة تعرضت للشلل حتى يسهل ابتلاعها، لأن البيئة التي تحيط به وتغذيه بثقافتها أصبح مثلها الأعلى، وفي المقابل نجد عند الغربيين أفكارا قد لا تثبت أمام النقد الموجه لها ولكنهم استخدموها إلى أقصى ما يستطيعون، مثل فكرة (التقدم)، والفرد في الجزائر يحمل مشروعا تراثيا قابلا للتطوير يساير مبادئه وقيمه، ولكنه لا يستفيد منه كثيرا في التخطيط لنهضة قادمة، فعقلية ما بعد الاستقلال تشله من الإبداع، هناك خلل في طريقة تفكيره، ولعل الأمة بمفكريها انتجت علوما معارف لكن يمكن أن تشكل انطلاقة نحو الازدهار، لكن المجتمع الجزائري لم يستفد منها، لأنه لم يكن على المستوى الثقافي والتفكير الايجابي الذي يمكنه من الاحاطة بهذه الافكار، ورعايتها فالمشكلة " أن مجتمع ما بعد التحضير يسير إلى الخلف بعد أن انحراف عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها"[3].

ويمكن حصر الخلل الذي يعاني منه المجتمع والذي أوصله إلى ما هو عليه في ما يلي:

- آفة السهولة (مرض السهولة)حيث يميل فيها الفرد في تقويمه للأشياء إما للغلو فيها أو الحط من قيمتها، ويتمثل هذا في نوعين من الأمراض: فإما أن الأمور سهلة جدا ولا تحتاج إلى تعب وكد فكر، والحل بسيط، وإما أن الأمور مستحيلة، وأبرز مثال على مرض (السهولة): قضية تأمين غذائنا من أرضنا، وبسواعدنا خاصة وأن ذلك ممكن جدا، وكما هو معلوم اليوم الأمن الغذائي هو أخطر أنواع الأمن، وهناك من يظن أنه بخطبة رنانة تكسب بها عواطف تحل مشاكل الأمة، وبعضهم يكره أن تدعوه إلى تفكير عميق في موضوع ما من الموضوعات لأنه يؤثر السهولة ويكتفي بتفسير سطحي، وعندما تخطط السياسة طبقا لمبدأ السهولة فإنها سوف تجتذب إلى تيارها كثيرا من الناس ذوي النوايا الطيبة، الذين يقدرون الأشياء بناء على سهولات الحاضر لا على صعوبات المستقبل، وأيسر طريق لأصحاب السياسات الانتهازية أن يستخدموا كلمات كالاستعمار والإمبريالية والوطنية والأوضاع الدولية؛ للتغرير بالشعوب، هذه

3- المرجع نفسه،ص 102

الكلمات التي "تليق جدا لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه نحو السهولة ميسورا جدا"[4].

- آفة الاستحالة: وقد يحدث العكس، فيرى المجتمع أن الأمور مستحيلة ويقف أمامها عاجزا، وهي في الحقيقة غير مستحيلة ولكن ربما يضخمها عمدا حتى لا يتعب نفسه في الحل، أو أنه يشعر بضآلة نفسه وصغر همته فيحكم عليها بالاستحالة، وقد مرت فترة كان الشعب الجزائري كان ينظر إلى صعوبة إخراج المحتل من بلاده من هذا القبيل.
- آفة تقديس الأشياء: عندما يكون مجتمع ما في حالة نهوض يجب أن يتحقق الانسجام والتوازن بين هذه العوالم (الأشياء والأشخاص والأفكار)، ولكن الحقيقة أن النزعة (الكمية) هي المسيطرة، "فلا يسأل المؤلف عن الموضوع الذي تناوله في بحثه، وإنما يسأل عن عدد صفحات الكتاب، وقد يقع المؤلف نفسه في هذه النزعة فيفتخر بأنه أخرج كتابا من كذا صفحة"[5]، وأصبح ما يؤلف وينشر لا تُستحضر فيه مبادئ الأمة ولا يُبحث فيه عن مستقبلها، وكأن الأمر لا يهم هذه النخبة المثقفة، وحجتهم الواهية في ذلك أن هناك سلطة تتولى التفكير والتنفيذ في المجتمع، لما تملكه من وسائل والامكانيات، وأصبحت مشكلة التنمية تعالج بزيادة الضرائب التي تشمل جميع أوجه النشاط الفردي، وفي هذه الأجواء يظن الفرد أن (التكديس) هو الحضارة، فيشتري منتجات الغرب بكميات أكثر مما يحتاج له، "وإذا كان مجتمع ما قبل التحضير فقيرا في عالم الأشياء، فإن مجتمع ما بعد التحضر مكتظ بالأشياء ولكنها خالية من الحياة"[6].
- آفة تقديس الأشخاص: عندما يتعلق الناس بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبدأ أو الفكرة فإنهم يرون أن إنقاذهم من الحالة التي هم عليها بـ (البطل القادم) الذي ينتظرونه دون أن يقوموا بجهد بذكر، فالخلاص عندهم لا يتم بتجمع أناس على مبدأ يدافعون عنه، ويتفانون فيه، ويتقنون فن التعاون؛ بل الرجل الذي يجمعهم ويوحدهم، وقد يطول انتظارهم وهم يمنون أنفسهم بالأماني، وهكذا نسمع الخطباء لا يفتئون يذكرون (أين صلاح الدين؟؟) أو (قم يا صلاح الدين !!)، فهم يريدون (صلاحا) آخر ينقذهم، ولا شك إن (إجلال رجل القدر) مثل إجلال (الشيء الوحيد) مرض منتشر في أرجاء العالم الاسلامي وليس في مجتمعنا فقط، وهو كثيرا ما كان سببا في إفلاس فادح لسياسات عديدة كان من شأنها أن تنهض في برامجها بالأمة إلى الرقي، وبدلا أن يكون هناك (رجل القدر) يكون (رجل النحس)-وهو الأقرب إلى

4- المرجع نفسه، ص 102

5- المرجع نفسه، ص 103

6- المرجع نفسه، ص 104

الوصول- كونه تربى على يد المحتل، نستند إليه وفي النهاية نلقي عليه الملامة ونحن من اسندنا أمرنا إليه.[7]

لذلك نلاحظ تجسد الأفكار في أشخاص ليسوا أهلا لحملها فتحسب كل أخطائهم وانحرافاتهم على المجتمع، وقد تتجسد في أشخاص يحملونها ولكن إذا ماتوا انتهت هذه الأفكار، لذلك لابد أن تكون الأفكار مشروع الأمة جميعا، ومسؤولية الجميع، لطي لا تموت الأفكار بموت الرجال، ولعل ثورة التحرير دليل ذلك، فقد كانت الأفكار مشروع المجتمع و مسؤولية الأمة لذلك لم تنته الثورة باستشهاد الرجال الذين فجروها، بل كل فرد في الجزائر شعر أن الثورة مشروعه إلى أن كُتب لها النصر.[8]

- آفة تقديس الأفكار: عندما يكون المجتمع في حالة مضطربة، فلا هو بداية دخول الحضارة ولا هو خارج تماما عن الحضارة، في هذه الحالة في هذه الحالة يفقد المتعلم تكيفه مع الوسط الاجتماعي، أو لا يستطيع أن يقوم بعمل مثمر يرضي ضميره، عندئذ يلجأ للبحث في الأفكار المجردة النظرية التي لا تأخذ طريقها إلى التطبيق، وبدل أن يتكلم عن معاناة الناس ومشاكلهم والتخطيط لمجتمع أفضل، فهو يتكلم عن الماضي الذي ليس له صلة بالحاضر ولا بالمستقبل، أو يفتعل معارك وهمية يكون هو أحد أبطالها.[9]

3- حجة الحق والواجب:

من طبائع البشر الميول إلى نيل حقوقهم باعتبارها مكسبا مكفولا، لكن قد ينفر الفرد منهم من القيام بواجبه، والأمة التي تصاب بمرض الركون وعاشت قرونا من التخلف فإن المطالبة بالحقوق ونسيان الواجبات أهون الأشياء عليها والتي لا تكلفها الكثير، فهي تشبه الكائن الطفيلي (الأميبي) المتبطل، حتى إذا رأى فريسة هينة أبرز إليها يده ليقنصها، يم يهضمها في هدوء، وبقي هذا الكائن يأكل من حاجاته المتواضعة حتى إذا جاء العدو لم يدع له شيئا فتحرك ضميره(معدته)، فمد يده إلى فريسة وهمية تسمى (الحق)، وهذا منشأ سياسة الدجل التي مارسها من يتقن مثل هذه الأدوار، فللمطالبة بالحقوق إغراء شديد ينجذب إليه الانتفاعيين، بينما كلمة (الواجب) لا تجتذب عير النافعين، وعندما يستغلها الزعماء المهرجون لتجميع الغوغاء من الشعب ويلعبون بمفتاح الحقوق، فسيكون من الصعب أن يستخدموا مفتاح الواجبات، وتتحول الأمة إلى استجداء حقوقها من الأمم المتحدة

7- المرجع نفسه ص 104

8- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق، ص 30

9- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي. ص 196

ومجلس الأمن والرأي العام العالمي، ولكن ما من مجيب، لأن هذه الأصنام ما نُصبت إلا لتخدير الشعوب وتعليمها لغة الاستجداء.[10]

لذلك كان لزما أن تصحح هذه المفاهيم في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال من أجل ينطلق الفرد فيه إلى أداء واجباته قبل أن يطالب بحقوقه، وهذه مسؤولية الجميع، وخاصة النخبة التي تدرك أبجديات المفاهيم وأبعادها.

ففي أبجديات الفكر السياسي كلمة الواجب توحد وتؤلف بينما كلمة الحق تفرق و تمزق، لكن الذي حدث في بلداننا العربية الاسلامية بعد الاستقلال والتحرر من المحتل مان خلاف ذلك، حيث تناحرت أحزابها على المطالبة بحق اقتسام الغنيمة، بدلا من أن يتكلموا عن الواجبات.[11]

يروي مالك بن نبي رحمة الله عليه نموذجا حيا لمسألة الواجبات التي هي مسؤولية الجميع يقول: "شاهدت خلال بعض المواقف السياسية في الجزائر جيلا من السياسيين يقفون من قضية مهمة بالنسبة للشعب الجزائري، وهي قضية الأمية، يقفون منها موقفا جديرا بالملاحظة، فقد كتب هؤلاء السياسيون المقالات الطويلة لشرح هذا المرض الاجتماعي الخطير، موضحين نتائجه المنكرة في حياة الفرد، وهم في هذا كله يهاجمون الاستعمار في خطب ملتهبة بالحماس متقدة بالوطنية، وهكذا يستمرون في خطبهم ومقالاتهم حتى تتقطع انفاسهم عن الكلام، وتمر الأعوام تلو الأعوام والمشكلة لا تجد في مجهوداتهم حلها، ذلك أنهم لم يدخلوا إلى المشكلة من طريق حلها، في مقابل ذلك أصدرت الحكومة الفرنسية عام 1940م قوانين استثنائية قاسية حول تنظيم التعليم في مختلف مراحله بالنسبة للطائفة اليهودية في الجزائر، وشعرت الطائفة بأن أطفالها أصبحوا مهددين بالأمية غير أنها لم تكتب مقالة واحدة تستنكر هذا الإجراء، ولم يلق واحد منها محاضرة عن هذا الأمر، وإنما اجتمعت النخبة فيها ودرست المشكلة لكي تحدد موقفها منها، وحددت موقفها منها بأن بتطوع كل ذي علم بقدر ما عنده من العلم، وهكذا اصبحت كل بيت من بيوت المتعلمين مدرسة في ساعات معينة، ولا نستطيع أن نبرر هذا بتفوق اليهود المادي أو العلمي لأننا لا نستطيع أن نفترض أن الدكتور أو الصيدلي أو المحامي اليهودي أغزر علما من زميله الجزائري، فالاختلاف هو في الموقف الاجتماعي إزاء مشكلة معينة"[12]

بعد أن شخص مالك بن نبي الوضع القائم في المجتمع الجزائري أثناء وبعد الاحتلال، قدم تصورا لمشروع مجتمع حضاري .

10- مالك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي. ترجمة عبد الصبور شاهين. ط1. دار الفكر، دمشق، سوريا. 1986 ص131

11- مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه. ط2. ترجمة عمر كامل مسقاوي. دار الفكر، دمشق، سوريا. 1998. ص 129

12- مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه. المرجع السابق. ص 129

مشروع مجتمع الحضارة في فكر مالك بن نبي

يمكن أن نتناول مشروع مالك بن نبي لبناء مجتمع جديد قائم على أسس حضارية من خلال

التشخيص الموضوعي المتكامل والشامل لحالة الشعوب والمجتمعات العربية المعاصرة عموما والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص ما بعد الكولونيالية، إذ لا يمكن أن نتجاهل حالة الأزمة العميقة التي تميز راهنها و واقعها الحاضر، تعبر عن ذلك حالات الحيرة والشك والتشتت وتراجع سلطة القيم، وغموض الاتجاهات والتوجهات وفوضى الأفكار والقناعات، ما أدى إلى تقهقر قيم العيش المشترك.

من أجل ذلك قدم ابن نبي وجهة نظر لبناء مشروع حضاري يتلائم و وضع المجتمع الجزائري الذي عاد إلى الحياة بعد أن أصيب بالإغماء بفعل مشروع المحتل المستدمر، وأعاد زرع بذور الأصالة مجددا لتنبت له الزرع بعد أن وجدت تربة بيئتها أصيلة قابلة للإحياء رغم ما أصابها من جفاف الحرمان والتحريف والقهر، والاحتقار.

من خلال مشروعه بدأ بتشخيص وضع المجتمع الجزائري انطلاقا من ثورة التحرير، لأن ذلك سيبين لنا الاتجاه الذي نسلكه، "في بعض المنعطفات المعينة من التاريخ، يتعين على المجتمع أن يعرف بأي تقويم ينخرط في إحدى المراحل الجديدة، ومن هنا يجدر بنا أن نتساءل: أين كُنّا غداة الأول من نوفمبر1954؟!"[13]

وللإجابة عن هذا التساءل بدأ بتشخيص البيئة التي كان يعيش فيها الفرد الجزائري، "فقد وُلدت أجيال جزائرية عديدة وسط الضباب الذي يُغشّي المجتمعات التي تضعها بعض الظروف الفاجعة على هامش التاريخ، داخل الضباب يكون من العسير على الانسان أن يشُق له طريقا معيناً، حتى لينتهي الفرد نفسه إلى فقد الصلة بين المجموع ومع الجماعة، الأمر الذي يُفضي إلى تقوّض شبكة الصلات الاجتماعية على هذا المنوال"[14].

فكان حال الفرد في هذا المجتمع يعبر عن معاناته، ويصف حالة التيه التي يتخبط فيها، "فالجزائري الذي وُلد ضمن هذه الشروط لم يكن شيئا آخر سوى مجرد فرد؛ أي كائن معزول عن جماعة وُضعت على هامش التاريخ من جراء (القابلية للاستعمار)، حتى أصبحت مفككة الأوصال يفعل الاستعمار حتى لقد كان يُشبه الغرد الذي تبقّى على قيد الحياة بعد نوع بشريّ منقرض عقب كارثة جيولوجية"[15].

13- مالك بن نبي، القضايا الكبرى.ترجمة عمر كامل مسقاوي. ط1. دار الفكر، دمشق، سوريا. 1991 ص 31

14- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 31

15- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المجرع السلبق. ص 31

وقد أوشك على الفناء والانقراض حاله في ذلك حال الحيوانات المنقرضة، لما سُلط عليه من ظروف كانت أكثر منه، وكانت غايتها إنهاء وجوده، "وكانت الفاجعة التي يعيشها تُشبه فاجعة حيوان (الماموث) الأخير المتبقي من العصر الجليدي الأول، تائها عبر البراري المتجمدة وغير الرحيمة، التي كان لا يعثر فيها على قوته"[16].

كما صُنعت له ظروفا أقوى منه، لا يرى من خلالها أي أمل في الحياة، "وكان الشعب الجزائري يعيش في بلاد سُد فيها المستقبل أمامه، حيث كان الفرد يولد والتشاؤم يملأ أعماقه وروحه، لأنه كان يفقد الدوافع الوجودية الباعثة التي تتيح للإنسان أن يُكرس نفسه للحياة أو الموت من أجل شيء معين"[17].

فقد زُرعت فيه بذور الفشل والتواكل ليصبح مهيء ليتقبل كل ما يأتيه من غيره مهما كانت نوعيته وأثاره، "ففي المرحلة التي سبقت عهد استعمار الجزائر، اكتفى الإنسان بمجرد الحياة الخاملة، واختلق له، لكي يُغالط نفسه بالنسبة إلى وضعه البائس، ضروبا من التّعِلات الصوفية الكاذبة كان يُقيمُها مقام الدوافع المعللة، ولقد تكفلت النزعة المرابطية بمده بتلك التّعِلات مقابل ثمن منخفض أو مرتفع لتصرفه عن ماضيه، وحاضره، ومستقبله، ثم ضاعف الاستعمار من خطورة هذه الوضعية، جاعلا من الانسان مجرد شيء من جملة أشيائه، كما جعل من النزعة المرابطية جهازا للإرسال مضطلعا بإيصال توجيهاته إلى الشعب، بعد تحويلها إلى دوافع جديدة مطابقة لمرامه"[18].

كما يرى ابن نبي أن الأوضاع التي كان يعيشها العالم حيث أن الجزائري ليس معزولا عنها، أثرت فيه فأيقضت الروح الخاملة فيه و بدأت تنتعش، مع المحيط الذي فُرض عليه لكن بإيجابية، "وبعد الحرب العالمية الأولى فحسب، استطاع الشعب الجزائري أن يخرج من مرحلة ما قبل التاريخ المتّفقة مع ما بعد الموحدين، لكي يدخل إلى عالم القرن العشرين، فالحركة الإصلاحية والحركة الوطنية قد ظهرتا إلى النور في هذه الفترة بالذات، وقد بدأت غشاوة الأوشاب التي سادت ما بعد عهد الموحدين، في الانفراط والتفتت، تحت تأثير جهد هذا النشاط الأخلاقي و السياسي المزدوج، الذي حرر الوعي الجزائري، ورده إلى جادة التاريخ"[19].

16- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 32

17- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 32

18- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 32

19- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 34

ورغم محاولة الاستدمار بقوته واعوانه الوقوف في طريق نهضة الشعب الجزائري فلم يفلح بل كان ذلك الضغط عام قوة له، "كما بدأ تاريخ النهضة الجزائرية في هذه الفترة بالذات، مع تزايد الضغط الاستعماري الذي يرمي إلى استبقاء الطاقات المستيقضة تحت مراقبته، فالتناقض الانفجاري الذي أدخل الجزائر إلى حيّز الأزمنة العصرية، قد بدأ تاريخه من هذا الصدام القائم بين شعب أستأنف سيْره في الطريق، وإدارة أجنبية كانت تعمل على إعاقة هذا السّير، باستبقائها لضباب الاستعمار والقابلية للاستعمار ومحفظتها عليه، وكان هذا الصدام يقتضي أن يؤول بصورة حتمية إلى الثورة-النشاط المسلح- لشعب مصمم على تقويض الحواجز التي تسدّ مستقبله، عازم على الخروج من مرحلة القرون الوسطى مهما كان الثمن"[20].

وكان من نتائج المواجهة مع المحتل تصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة التي كان يُمنى به الفرد الجزائري من العدو لإرضائه البقاء على الحالة التي هو عليها، "لقد مزق هذا النشاط الضباب الذي ران عليه، وإن كان لم يزحه عنه إزاحة تامة، حيث تبقت على الطريق بعض الكومات من هذا الضباب تُغشي أفاقا حتى هذا الحين"[21].

لذلك كان لزاما على المجتمع الجزائري الجديد أن يعي الكثير من المفاهيم والمصطلحات في إطارها

الزماني والمكاني والحالي، لكي لا يُخطي في تحديد معانيها بناء على بيئات أخرى تبعا لطبيعة مجتمعها، "وضمن هذه الشروط بالذات، يواجه الجيل الراهن، من خلال نفس المشروع الثوري الذي يضطلع به، السؤال الرئيسي التالي:

ماهي الحضارة؟ ... ونحن عندما نضع هذا السؤال، ربما خامرت ذِهننا اهتمامات مختلفة قد يكون من بينها اهتمام المختص في علم الانسان (Anthropologue)، الذي يمثل لديه: (كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية)، في أي مجتمع من المجتمعات النامية أو المتخلفة، نوعا معينا من الحضارة"[22].

كان لزما على المجتمع الجزائري الذي وُلد حديث أن يضبط المصطلح و يحدد المفاهيم من أجل أن يستفيد من المرحلة التي يعيش فيها، مع مراعاة حاله الفكري والثقافي، بعد أن كُتب له البقاء، "إن البعد الحضاري للأمم هو من يحدد الأبعاد التي تحملها كلمة (الحضارة)، لأنها ليست لفظة فقط تطلق بل لها معنى ومدلولا واسعا تبعا المستوى الفكري للأمة، والوضع الاجتماعي الذي تنمو فيه لذلك

20- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 34

21- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 34.

22- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 35

يقول: "هذا الاستعمال لاصطلاح الحضارة، أوسع بكثير من نطاق الموضوع الذي نُهام به، لاسيما في بلاد مُنهمكة- على وجه الدقة- في النضال ضد مصاعب التخلف، بينما يظل هذا السؤال قائما بالنظر إلى المشاكل التي تواجهنا، وذلك باعتباره على الأقل دعوة تسْتحِثُّنا للبحث لها عن حلولها، لأن ذلك يتم في نطاق اهتمامنا بامتلاك أداة لعمل فعّال، وطريقة تزيد في تمكيننا من الهدف الذي نرمي إليه بحيث تضعه في مُتناول وسائلنا الحقيقية، أكثر مما يتم في نطاق اهتمامنا باستكشاف وإبراز حقيقة جديدة"[23].

لذلك حدد مجموعة من الأسس لضمان الانطلاقة بالمجتمع الجزائري أهمها:

1- أثر الفكرة والسياسة:

قدم لنا مفهوما جديدا للكلمة من خلال الأثر الذي تتركه على سامعه، لذلك من الضروري أن نحسن اختيار الكلمات تبعا للبيئة التي تتقبل أن تزرع فيها من أجل أن يكون لها أثر، "إن الكلمة لَمِن روح القدس، إنها تساهم إلى حد يعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد، إذ تدخل إلى سويداء قلبه، فتستقر معانيها فيه، لتحوله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة، فالكلمة يطلقها الانسان يمكن أن تكون عاملا من العوامل الاجتماعية حيث تثير عواصف في النفس تغير الأوضاع العالمية"[24].

وقد أورد مثلا للكلمة المؤثرة المعبرة والتي منبعها المجتمع و فيها تشخيص لوضعه "وهكذا كانت كلمة جمال الدين، فقد شقت كالمحراث في الجموع النائمة طريقها، أحيت مواتها، ثم ألقت وراءها بذورا لفكرة بسيطة؛ فكرة النهوض، فسرعان ما آتت أكلها في الضمير الاسلامي ضعفين، وأصبحت قوية فعالة، بل غيرت ما بأنفس الناس من تقاليد، وبعثتهم إلى أسلوب في الحياة الجديدة"[25].

ثم بين أثر تلك الكمة في المظاهر التي شهدت فعلا تغيرا ملموسا وتأثرت أيما تأثرا لالمشروع، "وكان من آثار هذه الكلمة أن بعثت الحركة في كل مكان، وكشفت عن الشعوب الاسلامية غطاءها، ودفعتها إلى نبذ ما كانت عليه من أوضاع ومناظر، فأنكرت من أمرها ماكانت تستحسن، واتخذت مظاهر جديدة لا تتلاءم حتى مع ثيابها التي كانت تلبسها، فنبذت النرجيلة والطربوش والحرز والزردة، ولقد بلغ تأثير تلك القوة الفعالة الجزائر فأخذت منها بنصيب"[26].

23- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. المرجع السابق. ص 35

24- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر، دمشق، سوريا. 1986. ص 20.

25- مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق. ص 20

26- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق. ص 20

إن طبيعة المجتمع الجزائر عبر مراحل التاريخ تتسم بالجدة والعملية، لذلك رغم ما عناه من تعطيل لطاقاته وإدخاله في حالة السبات التي تبقيه يتنفس فقط من أجل أن يستهلك منتوج الأخرين كان يملك روح متقدة قابلة للحياة بما تحمله من خلفيات أيجابية تشكل نموذجا رائدا عبر تاريخية، "إن مجتمعنا في المرحلة السابقة على تحضره يواجه نشاطاته البدائية بحوافز وطرق عملية، تمثل عالمه الثقافي المتواضع، ومع ذلك وحتى في هذه المرحلة فإن هذا العالم يشتمل على أفكار- رائدة- يرثها الجيل عن الجيل السابق، ويورثها الذي يليه، وأفكارٍ عملية يواجه بها كل جيل الظروف الخاصة بتاريخه؛ بعد أن يُدخل تعديلا قل أو كثُر يلائم مسيرته، فأما الأفكار الرائدة التي تحتضن نشاطه، فهي في هذه المرحلة مخزونه الأخلاقي، وأما أفكاره العملية التي توجه نشاطه فهي وسائله التقنية"[27]

حيث يصف حال وضع الجزائر في هذا المجال بقوله: "فمأساة الجزائر مثلا حتى سنة 1918 لم تكن إلا رواية صامتة، أو أثرا من الآثار التاريخية وُضع في متحف، أي في صدور قوم صامتين يعلمون السر الخفي للمأساة، حتى أرّقت ضمائرهم، واحتوته أيضا ملفات الحكومة التي كانت تعلم من أمرها ما تعلم، حتى إذا ظهرت الفكرة الإصلاحية حوالي 1925 تحركت المشكلة الجزائرية، وقد أوتيت لسانا ينطق، وفكرة تنير لها الطريق"[28].

ثم ينتقل إلى السياسة الرشيدة الحكيمة التي تضع في حسبانها طبيعة المجتع و حاله، والأوضاع التي عاش و يعيش فيها، وهو ما استخلصه من الوعي السياسي في الجزائر والذي كان منطلقه إيجابيا مكن حاملوه من تحقيق أهدافهم ولو لم تكون هي الحل النهائي، "من الواضح أن السياسة التي تجهل قواعد الاجتماع وأسسه لا تستطيع إلا أن تكوّن دولة تقوم على العاطفة في تدبير شؤونها، وتستعين بالكلمات الجوفاء في تأسيس سلطانها، ولن تستطيع فهم هذه الملاحظات الاجتماعية إلا إذا فهمنا الآية الكريمة التي اتخذها العلماء شعارا لهم في تأسيس دعوتهم { إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[29]، وما بقي الاصلاح متمسكا بأهداب المجتمع إلا و كُتب له النجاح، وعلى هدى هذه الكلمة بدأ الإصلاح الجزائري من النفس، هادفا في جوهره إلى تغيير الإنسان، فبعث فيه روحا وثابة، أشرقت معها بوادر النهضة الكبرى، وكان الانطلاق الرائع للضمير الشعبي فيما قبل عام 1936 في انسجامه، واطراده، وحماسه، هو ملحمة الفكرة الاصلاحية التي توّجها المؤتمر الاسلامي المنعقد في ذلك العام"[30].

2- أثر نوعية الإنسان

27- مالك بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، ترجمة بسام بركة، دار الفكر، دمشق، سوريا. 2002. ص 57

28- مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق. ص 20

29- سورة الرعد ، الآية: 11

30- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق.ص 31، 32

يرى ابن نبي أن الانسان يعد الركيزة الأساسية لكل حضارة، فالإنسان الإيجابي هو من يعرف كيف يوظف كل ما حوله من أجل أن يحقق مشروع حضارته، و يحافظ على وجوده، رغم أن الإنسان تِثر عليه بيئته بكل ما تحمله من اختلافات عن فيره، إلا أننا نجد أن الحضارات بُنيت على أساس من الاختلاف في طبيعة الحياة إلا أنها تعبر عن إنجازات المجتمع المؤسس لها، "إن المشاكل التي تحيط بالإنسان تختلف باختلاف بيئته، فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة، تبعا لتنوع مراحل التاريخ، فلا يمكن لنا أن نقارن في الوقت الحاضر بين رجل أوروبا المستعمر، ورجل العالم الإسلامي القابل للاستعمار، لأن كليهما في طور تاريخي خاص به، وعليه فالأمر متصل بمشكلتين مختلفتين في أساسها، فهنالك من هم في حاجة إلى مؤسسات، بينما نحتاج هنا إلى رجال، فمن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها، وبخاصة في الجزائر، فالمسألة هي: يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى، ففي في بلاد مستعمرة مثل الجزائر، نرى أنه ليس فيها طبقات، وإنما هنالك صنفان من الناس:

الصنف الأول: وهو الذي يسكن المدينة، إما متعطل لا يعمل شيئا، وإما أنه يبيع بعض العقاقير والحاجات، وإما أنه (شاويش) في إدارة استعمارية، وبعض آخر نجده محاميا أو صيداليا أو ثاضيا، وقليل ما هم.

والصنف الثاني: وهو الذي يسكن البادية مترحلا بلا مواش، فلاحا بلا محراث ولا أرض"[31].

وقد تمكن المستدمر أن يقسم المجتمع الجزائري على مستوى الضعف لا مستوى القوة، وحدد معيار الانسان بمقدار موقفه من قضيته تبعا لموقف المحتل، لذلك كان لزما علينا أن نضع معيار جديدا للإنسان الرجل الذي يمكن أن يتحمل مسؤولية قصيته، ويكون أهلا لها، "واليوم فإن ذلك الرجل المقل يحاول وضع القضية الجزائرية في طريق نصف الحل، أمام المجلس المنصف بين المستعمرين وأهل البلاد ذلك المجلس الذي فرصه الاستعمار كميدان لإنصاف المثقفين، فقد صار من اللازم أن نضع أمامنا المشكلة بأكملها، وأن نأخذ في اعتبارنا –على الأخص- عنصرها الأساسي: الرجل، ويلزمنا أولا أن نفهم كيف يرثر الانسان في تركيب التاريخ، ومن الملاحظ أنه في القرن العشرين يؤثر الفرد في المجتمع بثلاثة مؤثرات (- بفكره– بعمله – بماله)"[32].

3- أثر الثقافة لتوجيه المجتمع

31- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق.ص75، 76

32- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق.ص76، 77

الثقافة أحد الركائز الأساسية لتشكل المجتمعات، بل عُدت من الضوابط التي تحكم الفرد في إطار مجتمعه، كل حضارة إنسانية قامت إلا وكانت مؤسسة على ثقافة تعود إلى جذور ذلك المجتمع، ومن أهم مدلولات الثقافة و أثارها :

- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية

الأخلاق أحد الأسس البارزة والمساهمة في قوة وتماسك الأمم والشعوب، حيث تشكل دستورا، يضبط أفراد المجتمع ويحدد الغايات المنشودة، وبين الوسائل لتحقيق المشروع الحضاري، ورغم أن مفهوم الأخلاق تتحكم فيه خلفيات كثيرة لكن الأمم صنعت من الأخلاق دستورا ضابطا، يحتكم إليه كل فرد في المجتمع، "لسنا هنا نهتم بالأخلاق من الزاوية الفلسفية؛ ولكن من الناحية الاجتماعية، وليس المقصود هنا تشريح مباديئ خلقية، بل أن تحدد فوة التماسك اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد، والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة، وتستخدم القبائل الموغلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمع، والمجتمع الذي يتجمع لتكوين حضارة، فإنه يستخدم نفس الغريزة، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية"[33].

ومصدر الأخلاق بالنسبة للمجتمع الجزائري ثابت، كونه ينتمي إلى شريعة الله التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، تجعل منه هذه الأخلاق مجتمعا موحدا متماسكا يعمل من أجل مصلحة الجماعة التي هي في أساسها مصلحة الفرد، "هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى{ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم}[34]، لذلك من الواجب أن نجد اتفاقا له مغزاه ودلالته بين ما توحي به هذه آية، وبين معنى كلمة (دين) (Religion) في أصلها اللاتيني فهي تعني هنالك (الربط والجمع)"[35].

- التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام وأثره.

من الضروري أن ننظر إلى الجمال على أنه ما يحسن به كل ما يدفع بالإنسان إلى الرغبة فيه، والجانب الجمالي في حياة الناس مقياس للحسن يسعى من ورائه كل فرد في المجتمع لبلوغه، وكل ما

33- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق. ص 88

34- سورة ، الآية:

35- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق. ص 88

غاب عنه الجمال قلت السعي إليه حتى ولو كان مجلب للمنفعة، بل الكثير ممن يرى أن الجمال أساس المنفعة لأنه يرغب الانسان في البذل، "الا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لابد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره، وأعماله، ومساعيه، ولقد بعثت هذه الملاحظة كل من عنوا بالنفس الاجتماعية من علماء الأخلاق، أمثال الغزالي، بدراسة الجمال، وتقديره في الروح الاجتماعية.

ويمكن أن تلخص أفكارهم –في هذا الصدد- في اعتبارها (الإحسان) صورة نفسية للجمال.

وترجمة هذا الاعتبار في لغة الاجتماع، أن الأفكار –بصفتها روح الأعمال التي تعبر عنها أو تسير بوحيها- إنما تتولد من الصور المحسة، الموجودة في الإطار الاجتماعي، والتي تنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صورا معنوية يصدر عنها تفكيره، فالجمال الموجود في الاطار الذي يشتمل على ألوان، وأصوات، وروائح، وحركات، وأشكال، يوحي الإنسان بأفكاره، ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل، أو السماجة القبيحة، فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الانسان في نفسه نزوعا إلى الاحسان في العمل، وتوخيا للكريم من العادات.

إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فنلحظ وجهنا، لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا، الذين ندين لهم بنفس الاحترام."[36].

أهم المراجع

1- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ط1، ترجمة عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، سوريا. 1991.

2- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو.دار الفكر، دمشق،سوريا.2002.

3- مالك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي. ترجمة عبد الصبور شاهين. ط1. دار الفكر، دمشق، سوريا. 1986

4- مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه. ترجمة عمر كامل مسقاوي. ط2.دار الفكر، دمشق، سوريا. 1998.

5- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ترجمة عمر كامل مسقاوي. ط1. دار الفكر، دمشق، سوريا. 1991

6- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر، دمشق، سوريا. 1986.

7- مالك بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، ترجمة بسام بركة، دار الفكر، دمشق، سوريا. 2002.

36- مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق.ص 91